في مكتبتنا

كتاب فلسفة التديّن

الطرق إلى الله في عالم متحوّل

د.عبد الجبار الرفاعي(*)

تقديم

أكثرُ ما يُكتَب تحذفه عاجلًا أو آجلًا ذاكرةُ الكتابة، وتتنكّر لحضورِه المكتباتُ الرصينة، ويطارده القرّاءُ المحترفون ويفضح النقّاد زيفه. أقرأ كتاباتٍ في الفلسفة والكلام القديم والجديد تتحدّث عن كلّ شيء وتحاول أن تقول كلَّ شيءٍ من دون أن تقول شيئًا، يكتبها أناسٌ يفتقرون إلى أدنى تكوينٍ تـراثيّ أو أكاديميّ أو لغويّ، يكدّسون كلماتٍ صاخبةً مقعّرة لا تبوح بـدلالاتٍ مفهومة، يورّطون أنفسَهم بحرفةٍ صعبة لا يمتلكون موهبتَها،

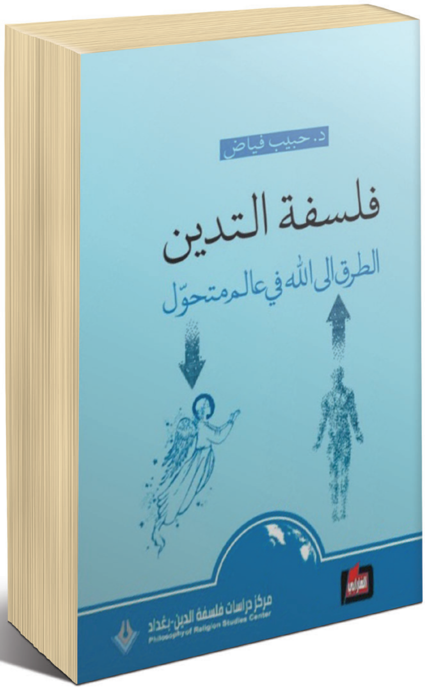

(*) مدير مركز دراسات فلسفة الدين/بغداد

تغويهم سهولةُ النشر اليوم فيُغرِقون المكتباتِ بأكداسٍ من الورق، تسرقُ أعمارَ القرّاء غير الخبراء، وتعبثُ بذائقتهم، وتهتكُ تقاليدَ الكتابة الجادّة.

هذا كتابٌ من النوع الذي يمكث طويلًا في ذاكرة المكتبة، وأظنّ أنّ حضورَه سيتجدّد لدى الخبراء مهما تقادم زمانُه. في هذا الكتابِ استطاع الدكتور حبيب فيّاض أن يكتب الكثيرَ من سيرته المعرفيّة والأخلاقيّة وتجربتِه الروحيّة. أعرف حبيب منذ ثلاثةِ عقود، وكلّما اختبرت الأيامُ صداقتنا تجلّى حبيب كأعذب ما يتجلّى فيه إنسانٌ شجاع عاطفيّ صادق، والعاطفةُ المتدفّقة غير المشروطة هي ما يغويني في كلِّ صداقاتي. حبيب متصالح مع نفسِه، يقول قناعاتِه الفكريّة بجرأة، وإن كانت لا تشدو ما يقوله أكثرُ الناس. أعرف التكوينَ الرصين لحبيب فيّاض، وتلمذتَه على فلاسفةِ دينٍ ومتكلّمين كبار نهلوا من منجمِ التراث الفلسفيّ والعرفانيّ ومعطياتِ الفلسفة والعلومِ الإنسانيّة الحديثة، وأعرف جيّدًا الذكاءَ الفائق الذي يلتمع في ذهنِه، ومثابرتَه وجَلَدَه في مراحلِ التكوين الجامعيّ، وأعرف مواقفَه وشهامتَه وغيرتَه على الإنسان. هذا الكتابُ مرآةٌ مضيئة ارتسمتْ فيها صورةُ حبيب الباحثِ الدقيق، وصورةُ مشروعِ المفكّر الذي يحاول أن يبتكر منهجَه ويحدّد خارطةَ تفكيره المرسومةَ بعناية واحتراف، خارطة لا تشبه إلّا ذاتَه، وكأنّها لوحةُ فنّانٍ مزج فيها ألوانًا متناغمة لتكون مرآةً مضيئة لفرادتِه. يحاول حبيب أن يعيد بناءَ أسسِ التفكير الدينيّ في الإسلام في سياقٍ مختلِف، لا يقف كثيرًا عند الدينِ بمفهومِه النظريّ، لا يذهب إلى الأفكارِ المجرّدة والتأمّلاتِ العقليّة وقراءاتِ النصوص الدينيّة، يذهب مباشرةً إلى الواقع يسائل تجليّاتِ الدين وحضورَه العمليّ، يدلّ القارئَ على التديّن الذي هو صوتُ الله في ضميرِ الإنسان، وصورةُ الدين في حياةِ الإنسان ومواقفِه وسلوكِه الفرديّ والمجتمعيّ.

عشتُ أيّامًا عديدة مع مخطوطةِ هذا الكتاب، كانت رحلتي معه شيّقةً شاقّة. شيّقة بوصفها معايشةَ كاتبٍ أعرفه من قرب، وأعرف تكوينَه العميق في الفلسفةِ ومدرسةِ الحكمة المتعالية خاصّة، وفي الإلهيّاتِ بشكل عام، واطّلاعَه الواسع على الفلسفةِ وعلومِ الإنسان والمجتمع وعلومِ اللسانيّات ومناهجِ التفسير الحديثة. وشاقّة

بوصفها كتابةً ابتكرت طريقتَها الخاصّة في بناءِ المفاهيم والتعبيرِ عنها وإنتاجِ رؤيتها الاجتهاديّة، وكلُّ كتابةٍ من هذا النوع لا يمكن أن تستوعبها إلّا بقراءةٍ متأنيّةٍ متريّثة. ربّما لا تتّفق مع حبيب في شيءٍ من رؤاه وطريقتِه في تركيب الأفكار وما يسوقه من حجج وأسلوبِ تعبيره عنها، غير أنّه يفرض عليك، كقارئٍ، أن تنصت بهدوءٍ إلى المتن الذي ينسجه بإحكامٍ وتأمّلٍ دقيق وتفكيرٍ صبور. كما يعرف تلامذةُ حلقات العلم التراثيّة أنّ قراءةَ المتون العرفانيّة بقدر ما هي شيّقةٌ هي شاقّةٌ أيضًا، لا يستسيغها إلّا قارئٌ قراءتُه عابرةٌ لأبعد من حدودِ الكلمات وآفاقِها الضيّقة، قارئ تخترق استبصاراتُه ما وراء الكلمات. كلّما توغّلتُ أكثر، شعرتُ بحاجةٍ إلى قراءةِ هذا الكتاب أكثر من مرّة. هذا كتابٌ نتعلّم منه كيف نفكّر تفكيرًا عقليًّا في الدين، وهذا النوعُ من الكتب قليلٌ جدًّا اليوم. هذا كتابٌ يعلّمنا كيف نتفلسف في الدين والتديّن لا على نموذجٍ متداوَل سابقًا، ولا على رؤيةٍ مقرّرة سلفًا. لم أجد عقلي ينصاع لكلِّ رؤى المؤلِّفِ ومنهجِه، غير أنّ قوةَ الكتاب فرضتْ عليّ كقارئٍ متخصّص أن أعود لمسائلةِ مناهجِ الكتابات الأخرى في هذا الموضوع، وحججِها وقناعاتِها المفارِقة في كثيرٍ منها لما جاء في الكتاب، واختبارِها في تقويضِ قناعاتِ المؤلّف. ما دامت الأسئلةُ الميتافيزيقيّة الكبرى تختبر إجاباتِها وتجدّدها على الدوام، فهذا كتابٌ يضعنا أمامَ إعادة النظر في إجابات تعلّمناها أو ابتكرناها، إنّه كتابٌ يجعلنا نكرّر طرْحَ هذه الأسئلة، ويدعونا أن نفكّر مجدّدًا في أجوبتِنا. كلٌّ منا أنا وحبيب يفكِّرُ في الدين ويقرأ نصوصه على شاكلته، إلّا أنّي وجدتُ نفسي وأنا أقرأ هذا الكتابَ بتأمّلٍ أتعرّف على حبيب مجدّدًا، حبيب الذي ينشد اللحن الروحيّ والأخلاقيّ في الدين الذي أنشده، لكن بمنهجَين غير متطابقين، وبرؤىً متوازيةٍ لا تتكرّر معالجاتُها، وإن كنّا معًا نعمل على تكريسِ الروح وإيقاظِ الضمير الأخلاقيّ وتنميةِ الحسِّ الجماليّ في التديّن.

بدءًا بعنوانِ الكتاب: «فلسفة التديّن» يثير في عقلِك المؤلِّفُ سؤالًا تحير في جوابه، أنت تعرف أنّ مصطلحَ «فلسفة الدين» هو المتداوَل حتى اليوم في الفلسفةِ الحديثة، منذ العملِ الرائد «محاضرات في فلسفة الدين» للفيلسوف هيغل «١٧٧٠ - ١٨٣١»،

أمّا «التديّن» فهو يحيل إلى العلومِ الإنسانيّة الحديثة، بما أنّه تعبيرٌ عن تمثّلاتِ الدين وانعكاسِه في حياة الفرد والمجتمع، وهو ما يرتسم من صورةِ الدين في حياة الإنسان ووعيه وضميره، وهذا شأنٌ يتّصل عضويًّا بالواقع، ومداخلُ دراسة التديّن بوصفه واقعةً فرديّة ومجتمعيّة هو علومُ النفس والاجتماع والأنثربولوجيا والميثيولوجيا، وعلومُ اللسانيّات والسيميائيّات والهرمنيوطيقا الحديثة. حاول حبيب نقلَ التفكير الفلسفيّ إلى الواقعِ الذي يحقّقه الدين، وسعى إلى أن يشرحَ موقفَه بتمييزٍ دقيق بين: المباحثِ الداخلدينيّة، والخارجدينيّة، ومضى نحو تحديدِ مصطلحاتِه وأدواتِه المنهجيّة بدقّةٍ وصرامةٍ في الفصلِ الأوّل من الكتاب، وجهد في التدليلِ على ما أثاره من أفكار، لدرايتِه بالأسئلةِ المتنوّعة المتوالدة من هذا الضربِ من الكتابةِ المفارِقة للمألوف.

يجادل حبيب فيّاض في فلسفةِ الدين، ويضع عقولَنا أمامَ أسئلةٍ مختلفة حول «فلسفةِ التديّن»، وهو المصطلحُ الذي يصرّ على تضمينه عنوانَ كتابه، ويحاول أن يخوض فيه من مداخلَ متنوّعة، لا يستوعبها إلّا قارئٌ صبور ذو تكوينٍ فلسفيّ ودينيّ مزدوج. مقارباتُ التديّن المتنوّعة تتّسع لتوظيفِ علم النفس وعلمِ الإنسان والاجتماع واللسانيّات، غير أنّ حبيب فيّاض عمل على زحزحةِ التديّن وإدراجِه في حقل الفلسفة، وهي محاولةٌ دلّل عليها منذ بدايةِ الكتاب حتّى نهايتِه، محاولةٌ تفرضُ عليك أن تنظرَ فيها بتريّث، سواء اقتنعت بها أم لم تقتنع.

لا تظهر قيمةُ الكتابةِ الفلسفيّة بمقدار ما تنتجُه من إجاباتٍ جديدة، ولا في ما تكرّره من إجاباتٍ جاهزة. قيمةُ هذه الكتابة في براعتِها بوضعِ عقل القارئ أمامَ مشكلاتٍ عميقة يتطلّب الخوضُ فيها الكثيرَ من التأمّل والتفكير غير المتعجِّل. لم أجد عقلي في بعضِ إجابات المؤلِّف وآرائه، بل وجدتُ لديه ما يحرّضني على التفكيرِ ويستحثّ عقلي على توليدِ أسئلةٍ موازية للأسئلةِ التي شغلتني أكثر من أربعةِ عقود، وحاولتُ أن أكتب إجاباتي عنها في مؤلفاتٍ متعدّدة.

لا أريد أن ألخصّ مادةَ الكتاب الثريّة الواسعة، فهذا يتطلّب كتابةً موسّعة. الكتابُ لا يترك عقلَ القارئ الذي يقرأه بهدوءٍ يهدأ، إنّه كتابٌ لا يرضى عنه السلفيّون، مثلما

لا يرضى عنه بعضُ دعاة الإحياء والإصلاح والتجديد، إنّه كتابٌ يشدو لحنَه الخاصّ، ويبتكر رؤاه، ويعمل على تعزيزِ حججه. قليلٌ من الكتب ذلك الذي يضيف إلى الذهن مادّةً جديدة للتفكير، وأقلُّ منها ما يثير لديه الأسئلة، لم يضِف لي هذا الكتابُ معلوماتٍ جديدة في الدين، على الرغم من وفرتها فيه، بقدر ما حرّض ذهني على إعادةِ طرح أسئلةٍ وتعميقها كنت بحاجةٍ شديدةٍ لمواصلة التفكير فيها، أنا إنسانٌ يتغذّى تفكيري ويتجدّد بالأسئلة، ولا يكفّ ذهني عن العودةِ إلى الأسئلة الميتافيزيقيّة الكبرى كلّما تقدم بي العمر. لا يستقرّ الذهن لمدةٍ إلّا بتقديمِ إجاباتِه لها، ثمّ سرعان ما يعود إليها كلّما قرأ كتابًا من هذا النوع، أو واجهه موقفٌ لافت، أو رأى شيئًا مثيرًا، أو أنصت بعمقٍ إلى غابة أسئلة الوجود.

شكرًا دكتور حبيب فيّاض على هذا الكتابِ الذي استحثّ ذهني على التفكيرِ معه وضدّه. ما ينقل الذهنَ إلى التفكير خارجَ الأسوار المغلقة على الدوام هو الكتابُ الذي يدعوك إلى التفكير ضدّه. أتطلع أن يأخذ هذا الكتابُ الثمين مكانتَه المناسبة في الدراسات الجامعيّة بتخصّصات الفلسفة وعلوم الدين، وأن يحضر في الدراساتِ الدينيّة في الحوزة ومعاهدِ التعليم الديني التقليديّة، وأظنّها الأشدَّ حاجةً لهذا الكتابِ وأمثالِه، والأشدَّ حاجةً إلى تلك الكتب القليلة جدًّا المنشغلة بإيقاظِ الذهن وبناءِ الحياة الروحيّة والأخلاقيّة.

عبد الجبّار الرفاعي

بغداد ٢٠٢٣/١/١

الأدب المقارن
(دراسات نظريّة وتطبيقيّة)

للدّكتور خليل بروينى

تمارا شلهوب جاد*

في عصر العولمة، يمثّل الأدب المقارن حاجةً ملحّة للدّارسين، نظرًا إلى ما تحمله الحضارة الحديثة من انفتاح العالم على بعضه البعض، وإلى سهولة وسرعة اطلاع كلّ أمّة على فكر الأمم الأخرى، والإفادة منه في إنتاج أدبٍ متفاعل عابرٍ للقارّات والمحيطات. ولهذا السّبب صار الأدب المقارن ضرورةً حتميّة للباحث، يتجاوز دراسة التناصّات السّطحيّة ليتناول العلاقات بين آداب الأمم، والتعالقات الثقافيّة والفكريّة التي تدفع بالآداب إلى الأمام، مع المحافظة على الأصالة التي تبلور خاصيّة كلّ أدب، وتبرز هويّته.

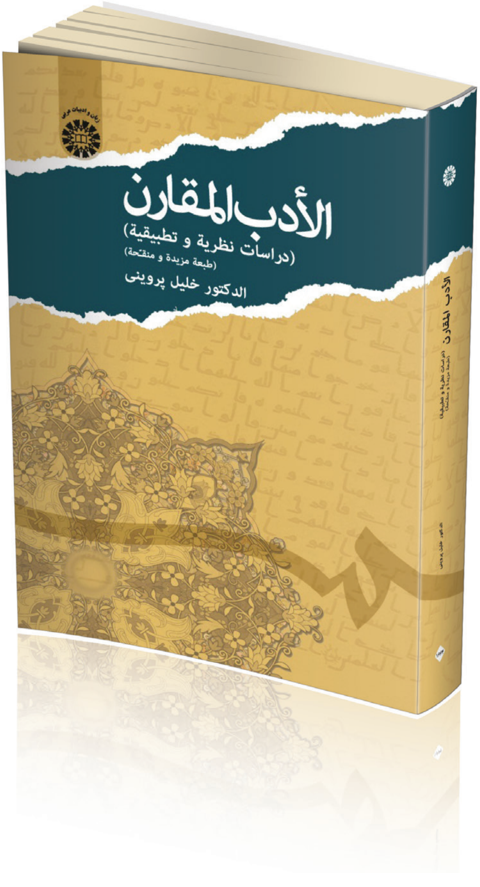

(١) طالبة دكتوراه ـ الجامعة اللبنانيّة

يأتي كتاب الأدب المقارن للأستاذ الدكتور خليل پرويني، لا ليقول كلّ شيء عن هذا النّوع الأدبي، ولكن ليقدّم قدرَ الإمكان تعريفًا جامعًا مانعًا له، للطّلاب غير المتخصّصين، أو غير المتمكّنين، لكنِ المتلهّفين للاطّلاع على الأدب المقارن، عبر التّبسيط في الإتيان بالمطالب، مراعيًا نشأة هذا الفنّ وتطوّره ومدارسه واتّجاهاتها ... والكتاب، على حدّ قول المؤلّف، هو حصيلة دراسته وتدريسه الأدب المقارن لأكثر من خمس عشرة سنة في جامعة تربيت مدرّس في طهران، حاول فيه الجمع بين الأصالة والحداثة، وبين النظريّة والتطبيق، ليقدّمه إلى الطّلاب مادّةً دسمة، لكنْ واضحةً تمكّنهم من إيجاد بعض الإجابات عن أهمّ تساؤلاتهم حول هذا النّوع من الأدب.

وقد طُبع الكتاب ستّ مرّات، وفي الأخيرة منها عمل على تنقيح الكتاب وإعادة النظر في تبويبه، وتصحيح الأخطاء الطِّباعيّة واللغويّة، وإضافة مسارد «الأعلام» و«المصطلحات» و«البيبليوغرافيا» في نهاية الكتاب، وأضاف في نهاية كلّ باب بعض الأسئلة والتدريبات التي من شأنها أن توسّع آفاق الأدب المقارن بغية التعمّق في المطالب الواردة في الكتاب. كذلك أُضيفت خاتمة للكتاب مع استدراك للنواقص المتعلّقة بالاستشهادات بالأبيات الشعريّة والإحالات وقائمة المصادر والمراجع.

كذلك يحاول پرويني، في كتابه، أن ينبّه الطّلاب إلى أنّ لهذا النّوع الأدبيّ ـ على الرغم من رجوع فضل التّأسيس العلميّ والممنهج للأدب المقارن، إلى الغربيين، ووفوده إلينا على سبيل التلاقح- بقاءً ونماءً وتطوّرًا في ثقافتنا وفكرنا وفلسفتنا، وقد أشار المؤلّف إلى ذلك من خلال التطرّق إلى نظريّة الأدب الإسلاميّ المقارن وأعلامه وأسسه، من طريق تقصّي جذور هذا الأدب وملامحه في النّقد الأدبي العربيّ القديم. فالأدب المقارن، شأنه شأن أيّ علم، لم يبدأ من نقطة الصفر، وهذه حقيقة علميّة معترف بها في التاريخ، لأنّ جذور هذا النوع الأدبيّ ضاربة في تاريخ الأدب ككلّ من الموازنات والمفاضلات عند البابليّين الذين ميّزوا بين ما هو بابليّ وما هو سومريّ، والعرب في عكاظ الجاهليّة أيّام النابغة الذبياني الذي فاضل بين الشّعراء بحسب من هو أشعر منطلقًا من ذوقه الخاص...

يعالج بروويني إشكاليّات هذا الفنّ الأدبيّ الحديث الذي لا يربو على القرن ونصف القرن، في أربعة أبواب كبرى، بدءًا من الباب الأوّل حيث التعريف بالمصطلح عند أصحاب المدارس المقارنيّة، وإرهاصاته وملامحه، ونشأته وظهوره في أوروبّا في القرن التاسع عشر، ومع الفرنسيّين تحديدًا، وتطوّره في أوروبّا وأميركا وألمانيا في القرن العشرين؛ مرورًا بالباب الثاني الذي عرّف مدارسَ الأدب المقارن واتجاهاته الأبرز: المدرسة الفرنسيّة، والأميركيّة، والسلافيّة، متوقّفًا عند مقوّمات كلّ من هذه المدارس وعناصرِها وميزاتِها، وصولًا إلى تفصيل نظريّة الأدب الإسلاميّ المقارن ذاكرًا لأهمّ أعلامه ومنظّريه. أمّا الباب الثالث فيبحث في الأدب المقارن في الأدبَين العربيّ والفارسيّ، انطلاقًا من ملامح المقارنة في النّقد العربيّ القديم، والفارسيّ القديم، مرورًا بدراسة ملامحه في البلدان العربيّة وفي إيران في العصر الحديث، انتهاءً بالتركيز على إشكاليّة الأدب المقارن في إيران بشكل خاصّ. وقد خصّص بروويني الباب الرّابع من كتابه لإيراد نماذج تطبيقيّة عدّة من الأدب المقارن يتركّز معظمها ما بين الأدبَين العربيّ والفارسيّ: فخصّص الفصل الأوّل للمقارنة بين الوقوف على الأطلال والدّمن في الأدبَين المذكورَين، وقارن في الفصل الثاني قصّة ليلى والمجنون ما بين هذَين الأدبَين، ثمّ ذهب إلى إظهار أثر قصّة حيّ بن يقظان لـ «ابن طفيل»، في قصّة روبنسون كروزو لـ «دانييل ديفو»، وبعدها إلى دراسة خصائص المدرسة الكلاسيكيّة الجديدة في الشعر العربيّ والفارسيّ المعاصرَين، وأنهى الكتاب بتقديم دراسة صورولوجيّة لصورة الأفغان في رواية «ثرثرة فوق سقف العالم» برموزها وأناسها وثقافتها ومجتمعها، بين إيجابيّة وسلبيّة.

هذا وإنّ الأدب والمقارن ما زال يخطو إلى الأمام بخطوات حثيثة، ويفتح يومًا بعد يوم آفاقًا جديدة... وما أتى به المؤلّف في الأبواب الأربعة هو حصيلة جهود صادقة في البحث في الأدب المقارن، تحتاج إلى الإضافة وإعادة النّظر في الطبعات المقبلة. نظرًا إلى المستجدّات الدائمة الدخول إليه وإلى محدوديّة الجهود البشريّة التي دائمًا ما تعاني من النّقص، فللّه وحده الكمال وله الحمد أوّلًا وآخرًا.